دراسة لمخطوطة:

"إتحاف أشرف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا"

✍: فضيلة الأستاذ أيوب بولسعاد

المقدمة:

هذه دراسة استقرائية لرجز "**إتحاف اشرف الملا باخبار الرباط وسلا**" وهو رجز تاريخي، حضاري، سلس، رائق، لازال بكراً، لم ينل العناية اللازمة به، رغم قيمته العلمية والتاريخية، وما حواه من مقاصد عالية غالية. فاستخرت الله في تحقيقه، وإخراجه من عالم المخطوط إلى عالم المطبوع، فارجو الله التوفيق والسّداد، فاقول:

ترجمة المؤلف[1]:

المؤرخ، العلامة الأديب، الكاتب الأريب، البحاثة المكثر.محمد بن محمد ابن علي الدّكّالي السّلاوي، ولد بسلا سنة 1285هـ/1868م.نشا ببلدته، وتعلم عن شيوخ سلا آنئذ ومن أهمهم وأشهرهم:

- أحمد بن خالد الناصري صاحب كتاب "الاستقصا" الذي تخرج على يديه، وحبّب إليه علم التاريخ.
- إبراهيم الجريري - عبد الله بن خضراء - أحمد بن موسى السلوي - أحمد الجريري.

وفي فاس:

- محمد بن التهامي الوزّاني - عبد المالك العلوي الضرير- أحمد بن محمد ابن الخياط الزّكّاري - مَحْمَد - فتحاً - القادري - عبد السلام الهوّاري - عبد الله الحسني.

مؤلفاته:

- "الإتحاف الوجيز" **طبع** في المكتبة الصبيحية العامرة بتحقيق بوشعرة.
- "إتحاف أشرف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا" **خ** وهو قيد التحقيق لصاحب هذه السّطور يسر الله إتمامه بخير وعافية.
- "أدواح البستان في أخبار مدينة سلا ومن درج فيها من الأعيان" **مفقود.**
- "ضوء النّبراس في محاسن مدينة فاس" خ.
- "أنساب العدوتين سلا والرباط" خ.
- "تخليد المآثر وتقييد المفاخر بترجمة شهاب الدّين أحمد ابن ناصر" شيخه صاحب الاستقصا خ.
- "الدّرّة اليتيمة في أخبار شالة الحديثة والقديمة" خ.
- "رسالة في أخبار حسّان الذي بالرباط" خ.
- "صريح الدلالة فيمن سكن دكّالة" خ.
- "رسالة في تاريخ المغرب القديم والحديث" خ.
- "ضوء النّبراس لدولة بني وطّاس" خ.
- "السّراج الوهّاج والكوكب المنير من سنا صاحب التاج" خ.
- "السّكك الإسلامية" **طبع** عن بلدية سلا.
- "الحسبة في الإسلام" خ.
- "بغية المستفيد في إعراب قام زيد" خ.
- "معارج الزلفى فيمن لقيته من أهل الاصطفا" خ.
- "أحوال اليهود بالمغرب حديثاً وقديماً" خ.

وظائفه:

تقلب المصنف في عدة مناصب سامية وهي:

كان عدلا بمدينة سلا، كاتبا لباشا سلا، كاتبا بالبنك المخزني بالرباط، كاتبا بالقصر السلطاني، كاتبا بالصدارة العظمى، موظفا بمندوبية العلوم و المعارف.

ثناء العلماء عليه:

قال عنه ابن سودة: «العلامة الكبير، والشيخ الشهير، الكاتب المقتدر، المؤرخ، صاحب التصانيف العديدة المفيدة...»[2].

قال القيطوني: «الفقيه، العلامة الكبير، المؤرخ الشهير، النقادة الخطير»[3].

قال الجراري: «ولد في بيت ماجد، عرف بالمروة والخيارة والنزاهة...، كان المترجم من أكابر المؤرخين، فما من موضوع إلا وله فيه اليد الطولى»[4].

ووصفه العلامة المؤرخ جعفر الناصري بقوله: «الشيخ الفقيه، مؤرخ سلا، والباحث في آثارها ومآثرها، وتراجم عمائها، ومشاهير أعيانها..» [5].

وفاته:

توفي - رحمه الله تعالى- بسلا يوم الجمعة سادس جمادى الثانية عام 1364هـ/1944م.

النسخ الخطيّة:

لأرجوزة "**إتحاف اشرف الملا**" نسخ خطية كثيرة:

- 3 نسخ في الخزانة الملكية وهي نسخ خزائنية، مزركشة، ومذهّبة، ومتقنة، بخط المؤلف وتحمل الأرقام: 227- 12109- 13874.

- 3 نسخ بالمكتبة الوطنية برقم: 11-383د -2931ك، بخط أحمد باليمني الناصري.

- ولها أكثر من نسخة في الخزانة الصبيحية العامرة.

- ونسخة بالخزانة الناصرية.

- ونسخة بمؤسسة علال الفاسي.

موضوعها وسبب نظمها[6]:

وها هو يبين ذلك بقوله:

وقــد نظمــتُ رجــزا مبتــــكراً   لمقصـــدٍ يفيــدُ كـــلّ مـــن دَرَا
في جــلّ اخبــار الرّبــاط و سَــــلا   وحال مـن غبَـر فيهـا مـن مَــــلا
مــن كــل ذي علــم وذي صـــلاح   وذي اشــتهار مــن ذوي النّجــاح
سمّيتـــــهُ اتحـافُ اشْرَف المَـــلا   ببعض اخبار الرّبــاطِ وسَــــلا

وعدد أبياتها بالاستقراء والعدّ هو: 2886 بيتاً.

وعدد مقاصده التي فيها مواضيعها عشرة مقاصد ولاحقة.

افتتحها بإهداء إلى المولى عبد الحفيظ وفذلكة، ثم أتبعها بالمقاصد العشرة ثم ختمها بلاحقة ردَّ فيها على ابن الخطيب في مفاضلته بين مالقة وسلا.

تفصيل ما أجمل أعلاه:

فذلكة:

ذكر فيها مقاصد هذه الأرجوزة فقال:

إن المقاصـــد الـــتي تُـــسَطّـــر   في ذي المُرَجِّـز وَعنهـا يُخـبَــر
عشـــرة بحســـب المَوْضـــــوع   مـــن المخصـــص وذي تفريــــع
فبعضـــها يَرجــعُ للمكَـــــان   والــبعض للاحــوَال والسّكـــــان
فالبقعـــة الاولى وبعــد المِنعــــة   والشــنعة الكبرى وَوصــف الصّنعة
ثــمّ العمــارة كــذا الحــضـــارة   ثــمّ النّضــارة مــع الاثـــــارة

ثـم المسَـاكنُ وذكـر السَّـاكِـن ولـيسَ ذا الترتيـبُ بالمعيَّـن
ورُبمـا اختلطـت المقاصـدُ ولم يُمَيّـز لِإشـتراك وَاحـدُ
فَقـد يُحـال بَعضـهَا لبَعـضِ بحيـث يُبلَـغُ المـرامُ المُرضِـي
ويجعـل الانسـبُ للتقـديم وَيتبعُ الاحَـقُ للتّفهـيم

* مَقْصِدُنَا الاوّلُ ذِكْرُ البُقْعَةِ وَمَالَهُ ارْتِبَاطٌ وَجِـهَـةِ *

ذكر فيه موقع سلا الجغرافي، ومسافة المساحة، وأمور أخرى تتعلق بالسِّكك، والأسطول، والفلاحة، وتاريخ بناء العدوتين.

* المقصد الثاني أخو العِمارَة وما اقْتضته القِسْمَة المُختارَة *

ذكر حدود سلا بعدوتيها، ومن بناها في المرّة الثانية، ومن أنشا الرباط، ومن ذكرها من الجغرافيين، وكيف توسّع العمران فيها، والملوك الذين تعاقبوا على حكمها.

* المقصد الثالث فيما يُذكَرُ من الحضارة وفيه عِبَـرُ *

ذكر فيه أن سلا قديمة في الحضارة قبل فتح المغرب، كانت فيها القصور والهياكل المنقوشة بالرّخام، والألواح المذهّبة، ولمّا جاء الإسلام نسخ العلم الجهل، وجاء الهدى بعد الضّلال، فبنيت المساجد، والرّياض، والصّوامع المزخرفة، المخطوطة بالخشب، والرّخام، والزّليج العجاب وكلها تسحر الألباب.

* المقصد الرابع في الصناعَة وَالقَوْلُ فيهَا يَقْتَضِي اشْبَاعَة *

ذكر فيه أنواع الصنائع التي كانت فيها: من البناء والطّرز، والقطن، والكتّان، والأسوار، والأبراج، ومنار الجامع، وشالّة، ودار الصّنعة المرينية، والأمشاط، والحصير، والجلد المدبوغ، والفخار كلها متقنة، مع ثيّاب الصّوف، والأكْيسَة والأغطية، كلها تحقق لسلا اكتفاء مع التّصدير، مع وجود نقص الملفة، والحرير، والخزّ، والذّهب، والسّكك تضرب، والمكحلات مع مكانٍ للرّماة، والمدافع والمهراس، ثم الملاحة البحرية، وعِلْمِهم أحوال الرّياح، وسائر الجهات، ثم صناعة الخط، والطّباعة على الطّين، والفلاحة أخص خصائص الصّنائع إتقاناً، وصنع السّفن أعظم الصنائع.

* المَقْصِدُ الخامسُ فيما يُعْتَبَرُ مِنَ النُّضَارَةِ لَدَا مَنْ قَدْ غَبَــرْ *

ذكر فيه: حسن منظر وطبيعة سلا السّاحرة، وموقعها المميّز، ومكان بنائها الذي اختير بعناية فائقة، وخريطتها الرّائقة، من جنان، ومياه، وظلال، وبساتين، ورياض، ودوام خصبها خصوصاً الولجة، ومن ذكرها بذلك من العلماء، وفضلها على كثير من مدن العالم.

* المَقْصِدُ السَّادِسُ فِيمَا يُفْتَخَرُ بِهِ مِنَ الشُّنْعَةِ وَهُوَ مُخْـتَصَرْ*

ذكر فيه فخر سلا المشهور عبر الدّهور، وقد كانت مكانا للإقلاع والحطّ عبر العصور، من أيام الفنيقيّين والرّومان، وكان أهلها يخاطبون حكامهم، إذ كانت سلا تمدّ روما بالحبوب.

ثم ذكر مجيئ الإسلام ومن فتحها، ثم تعاقب الأمراء عليها من الأدارسة إلى العلويين.

ثم ذكر السّلع، والبضائع التي تجلب وتصدر منها وإليها.

* المَقصد السابع ذكر المنعة فاسمع هديت للصّواب المثلّث *

ذكر فيه أن سلا حصناً منيعاً، لهذا اختارها أكثر السّلاطين والأمراء من ابتداء بَرْغْواطَة، مروراً بالمرابطين، ثم الموحدين، وصولا إلى العيّاشي وجهاده، ثم الدِّلائِيّين، ثم العلويين، وما أسّسوا فيه من البنيان، وأهم أعمالهم الحربيّة الجهاديّة ضد الهجمات الإسبانية والبرتغالية ثم الفرنسية.

* وَثامِنُ المَقاصِدِ المُحَــرَّرة وَصْفُ الآثارَة وَجَلُّ مَأثرَة *

ذكر فيه خصوبة أرض سلا من واد أم الرّبيع إلى واد لكّوس، وأن القمح، والحبوب، والزّرع يصدر من قديم العهد إلى عصره، ثمّ ذكر رمل بحر سلا، وأنه خصب جيد، واستدل بأقوال الجغرافيين.

وذكر أهل العدوتين وماهم فيه من الوفاق والخلاف، والاتفاق والافتراق فقال:

فهـي لـدا ذات اجتمـاع وافتـــراق	وَعامروهـا في خـلاف ووفـــاق
وكـل قسْـم مسـتقر ومكتمـــــل	والنّـاس مـن هـذا الـذّاك تنتقـــل
ومَـن غـدا بالجانـب الغربــــي	يغـبط مـن بالجانـب الشّــرقي
والحـكم الواقـــع بلا خـــلاف	فهـم على خُلف وفـي تصـافي

*** المقصدُ التّاسِع في المَســاكِنِ ذات الشُّفُوفِ والجمال البَيّــنِ ***

ذكر فيه مساكن سلا وقصورها البديعة، الجميلة المنظر، وأن حسنها مشهور، وما أنشاه أبو العباس ابن عشرة من قصره الشّهير البديع بسلا، وأن الشّعراء قصدته بالمدح لأخذ المنح، وأنزل فيه الملك الزّناتي الصنهاجي ملك بجاية من بني حمّاد، فاسّسوا دوراً لهم أمام المسجد الأعظم، لهذا يسمّى هذا الحيّ إلى الآن بزناتة.

ثم جاء على القصور والدّيار الأندلسية العريقة في سلا والرباط التي بناها الأمراء، ثم ذكر الرّياضات، وزاوية لنسّاك وتاريخها، وما آلت إليه، وما حوته هذه البنايات من حياض، ومغاني، وجنان، ومُنى.

*** المَقْصِدُ العاشِرُ وَهُوَ افَيَدُ في ساكِنٍ قَدْ ظَمَّنَتْهُ البَلَـدُ ***

وهذا أطول المقاصد، ذكر فيه طبقات أصناف الناس الذين كانوا في العدوتين فقسم هذا المقصد إلى مراتب فقال:

فانظر لأولى الطّبقات تستفد حالا جليلا هو لبّ ما افيد

فقدّم الأولياء، ثم العلماء، ثم القضاة، ثم الملوك، ثم الأدباء.

ثم اختتم بافلاك العلى ذكرهم عبر طبقات بتاريخ الوفيات، وأرّخ بحساب الجمل.

وذكر أوصاف الأديب، والعلوم التي يجب أن يحصّلها حتى يسمّى أديباً فقال:

وان تشا فطانة الالباب فاسمع الى طبقة الاداب

ان الاديــب مــن تبـدّا متقنــــا	لاثني عشر من العلوم علنــا
وهــي الــتي تعــرف بالوسايـــل	وبمعـارف اللسـان الاكمـــــل
وكـان في سـلا حـديثا و قديــم	ايمـة بـدوا كمـالا للعليــــــم
قد نظمــوا وحـاضروا ونتــــروا	و في ميـادين المعـالي حضروا

لاحقة:

اختتم بها نظمه، فخصّصها للرّد على الوزير لسان الدين ابن الخطيب وما ضّمنه في كتابه "ريحانة الكتّاب" مقالة فاضل فيها بين مالقة وسلا، وأنه لم يحفظ خير سلا عندما كان مقيماً بها، وأن مقارنتها في حدّ ذاتها لا تصحّ لبعد المسافات فقال:

ان الوزير ابن الخطيب قد كتب ... بما يسوء ارضنا وما أصاب
اودع في ريحانة الكتاب ... مقالة تخل بالآداب
فاضل بينها وبين مالقه ... من الجزيرة فابدا حمقه

وبه مسك ختم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه.

الهوامش

1- ترجمته في: ترجم لنفسه في وريقات ضمن مجموع (برقم 215) يوجد بمؤسسة علال الفاسي، "موسوعة أعلام المغرب" (3188/9)، "سل النصال" (134)، "دليل مؤرخ المغرب الأقصى"(13)، "معجم المطبوعات المغربية"(116)، "أعلام الفكر المعاصر"(177/2)، "التأليف ونهضته بالمغرب" (191)، "الأعلام" للزركلي (302/6)، "معجم المؤلفين" (511/3)، مقال نشر في "السعادة": (ع: 6470 س: 1945) بعنوان: "العلامة المؤرخ الفقيه السيد محمد بن علي الدكالي".

2- انظر "سل النّصال" (134).

3- "معجم المطبوعات" (116).

4- "أعلام الفكر المعاصر" (177/2-178).

5- "سلا ورباط الفتح وأسطولهما وقرصنتهما الجهادية"(1/ 23).

6- انظر "دليل مؤرخ المغرب الأقصى" (1619).